

الشعر الحماسي

الفصل الأول

إيضاح العناصر الأولية للأدب الهيليني

تمهيد

من المعروف لدى مؤرخي الأدب أن الشعوب القديمة على اختلاف أجناسها تبدأ حياتها الأدبية بترانيم دينية ، وأناشيد شعبية للغناء أو للحداد ، ثم ترقى بعد ذلك فتنشئ شعراً حماسياً ساذجاً مفعماً بالأساطير والخرافات التي تروى - في شيء غير يسير من المغالاة - حياة الأبطال والشجعان ، ومواقع النزال والطعان ، وأحاديث الأرواح الخفية ، وآثار ما وراء الإنسانية العادية . ولقد انضوت الأمة الهيلينية تحت علم هذا الناموس الاجتماعي فشمها كما شمل غيرها من الأمم ، إذ لا بد أنها تكون قد بدأت حياتها الأدبية في عصرٍ ما قبل هذا التاريخ بتلك الأناشيد الغنائية أو الحداثية ، وهاتيك الترانيم الدينية . ولا ريب أن هذه الأخيرة قد ألفت لإعلاء شأن الآلهة وتفخيمهم ولا سيما منهم « زوس » وعرائس الشعر فيما يجاور الأولمب من إغريقا القارية و « فيبوس أبولون » « Phœbos Apollon » و « أرتيميس » في جزيرتي كريت وديالوس ، ولكن هذه الترانيم قد فقدت جميعها ولم يبق من ذكرياتها إلا أوصاف حفلاتها التي كانت الموسيقى ترافق فيها الإنشاد .

ومن الطبيعي أن شعباً حياً نشيطاً مَرِئاً كالشعب الهيليني لا يستطيع أن يجمد في مكانه دون أن يتطور فيخطو إلى الأمام خطوات واسعة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن الهجرات المتعددة التي قام بها الهيلين إلى آسيا الصغرى كان لها أثر كبير في رقي الشعر لا من حيث

اختلاطهم بالأجانب فحسب ، بل لأن المهاجرين منهم قد شعروا بعد مغادرتهم أرض الوطن برابطة وثقت عرى الصلة به أكثر من ذى قبل ، فعالوا فى التعلق بتقاليدهم ، وحرصوا على التمسك بقوميتهم ، وجعلوا يستعرضون الذكريات الماضية ، ويتغزلون بعظمتهم الغابرة ، ويتباهون بمجد آبائهم وأجدادهم إلى حد أن يشركوهم مع الآلهة فى الترانيم ، ويفسحوا لهم فى أناشيدهم أمكنة هامة ، فكانت النتيجة الحتمية لهذا هى تطور الأناشيد والترانيم الأولية إلى مقطوعات ثم إلى قصائد حماسية ينشدها قوم من الشعراء المتجولين يطلق عليهم اسم « الأيدوس » « Aédos » كانوا ينتقلون من مدينة إلى أخرى ومن قصر إلى آخر ، ويدعون إلى الحفلات والمآدب ينشدون فيها قصائدهم المفعمة بذكرى أبطال الهيلين كـ « أجاممنون » أو « أخيلوس » أو « أديسوس » فيغبط المدعوون ويشلون بحمى مجد آبائهم ، ويسألونهم الاستزادة ، وهذا هو سر تعدد الأناشيد لكل بطل . ومن نماذج هذا ما تحدثنا به الأناشودة الثامنة من الأوديسا عن الأيدوس « ديمودوكوس » الأعمى الذى جاء إلى قصر الملك « ألكينوس » وأخذ يتمدح على مائدته بمجد أوديسوس وذكرائه .

بدأت إذا الأمة الهيلينية حياتها الشعرية بتلك الأناشيد والترانيم الأولية ثم نثت بمقطوعات حماسية قصيرة ساذجة ضاع الدور الأول منها بين أمواج الجهل والأمية اللذين كانا يسيطران سلطانهما على البلاد الهيلينية فى ذلك العصر . وقد تكهن بعض الأدباء بما عسى أن يكون قد فقد من منتجات هذا العصر الأول تكهنات شتى لا ترضى البحث المنطقي ، ولا تروق التحليل الدقيق الذى ينبغى أن يسفر دائماً عن نتائج محددة تحديداً تاماً ، ولكن الذى لا شك فيه هو أنه قد سبق درتي هوميروس الخالدتين شعر حماسى أدخل منهما فى باب الأولية والسذاجة لأنه ليس من المعقول أن تنتج عقلية أمة من الأمم مهما عظم خطرهما شعراً راقياً مثل الإلياذة والأوديسا فى بدء حياتها الأدبية . وقد رجح بعض مؤرخى الأدب أن ذلك الشعر المفقود وجد فى بلاد الهيلين حوالى القرن الرابع عشر قبل المسيح ، وأنه كان أداة معيشة منشئية والمترنمين به ، وأن هوميروس كان أحد أولئك المنشئين الجوالين الذين ينتقلون من قصر إلى قصر ، ومن مدينة إلى مدينة ، ليكتسبوا أقواتهم ، وأنه عاش فى القرن

التاسع أو أوائل القرن العاشر . وزعم فريق من النقاد أن هوميروس مشكوك في وجوده ، وأنه من المحتمل أن يكون شخصاً أسطورياً ولا سيما أن التاريخ الصادق لا يعرف عنه أكثر من أنه كان يعيش في مدينة « كيو » بإيُنيا في القرن التاسع أو العاشر قبل المسيح ، ولم يحتفظ لنا من ناحيته بشيء محدد البتة ، ولكن الرأي المعتدل الذي نوافقه هو أن هوميروس



هذه هي صورة ذلك الشيخ الأعمى هوميروس الخالد الذي طالما سحر الخاصة من الإنسانية بروائع فرائده وبدائع خرائده والذي طالما تفتى باسمه أندريه شنبيه في قوله : « لقد مرت ثلاثة آلاف سنة على آثار هوميير ، ولكن هذا الزمن على طوله لم يستطع أن يحجو مكانته من النفوس ، أو أن يذبل شبابه ، بل هو لا يزال شاباً في مجده وخلوده » .
[الصورة رقم ١ مأخوذة عن متحف اللوفر]

قد وجد حقاً ، وأنه إن لم يكن مؤلف الإلياذة والأوديسا كليهما ، فإنه مؤلف أكثرهما على أقل تقدير ، وأن جماعة من الشعراء قد أضافوا إليهما قطعاً أخرى ساروا فيها على منهج هوميروس إلى أن تمتا على شكلهما الموجود الآن حوالى القرن الثامن من قبل المسيح . أما تقسيم كل منهما إلى أربع وعشرين أنشودة فهو من عمل النحويين الذين عاشوا فى العصر الاسكندرى .

وأما سبب إنشاء هاتين الخريدين أو منشأ اشتغال هذه العواطف الحادة التى لم تلبث أن استحوالت شعراً بطلاً يظهر من خلال سطورهِ التعصب بأجلِ معانيهِ فهو أن التاريخ القديم يقص علينا أن بعض سكان آسيا الصغرى كانوا قد هاجموا بلاد الهياين واحتلوها زمناً انتهت بعده إلى الدفاع عن كرامتها فثارت بهم ، وما زالت تطاردهم فى عنف وقسوة حتى ردتهم إلى مهدم الأول فى آسيا الصغرى ، ولكن هذه الحادثة التاريخية القديمة قد تحولت إلى صورة أسطورية فظهرت فى الإلياذة بشكل حملة حربية بعثت من بلاد الهياين إلى مدينة تروادة ، وكان السبب فيها تلك المنازعات الخرافية التى وقعت بين الإلهات الثلاث والى ستعلم تفصيلها فيما بعد .

أسطورة حرب تروادة :

قبل أن نحال الإلياذة ونتحدث عن « الميتولوجية » الموجودة فيها ينبغى لنا أن نلم بالسبب الأسطورى الذى ألفت من أجله ، وهو حرب تروادة الشهيرة التى كان لخراقتها أثر كبير فى أخيلة الناشئين فى كل بلاد أوروبا الراقية .

تروادة مدينة بديعة غاية فى الجمال تقع فى آسيا الصغرى ، ويجلس على عرشها ملك مسن هادى كريم الخلق يدعى : « پرياموس » Priamos وله أبناء كثيرون ، أحدهم تتجلى فيه الشجاعة بأوسع معانيها وهو « هكتور » Hector وثانيهم مثل أعلى فى الجمال والوسامة وهو : « باريس » Pâris .

ينشأ هذا الأخير نشأة جافة خشنة كما ينشأ أبناء الرعاة في أعلى قم الجبال .

وفي أحد الأيام بينما هو جالس على انفراد تزوره الإلهات الثلاث : « أفروديتيه » Aphrodite إلهة الحب والجمال ، و « أثينيه » Athénè إلهة الحكمة ، و « هيريه » Hère زوجة « زوس » كبير آلهة الهيلين . ويقرر أيهن على أن يحتكن إليه في المسألة التي وقع فيها النزاع بينهن بشأنها ، وهى : أيهن أجمل ؟ فيحكم هذا الأمير الشاب لأفروديتيه بالتفوق في الحسن على تربيتها العظيمة .

وإذ تشمل هذه الإلهة الخليفة بخمرة الانتصار تقسم لتمكنن باريس من أجمل امرأة على ظهر الأرض ، وهى : « هيلينيه » زوجة « مينىلاؤوس » شقيق « أجامنون » أعظم ملوك الهيلين في ذلك الحين . وأما « أثينيه » و « هيريه » فإنهما تشعران باهانة قاسية تلحقهما من حكم « باريس » بتفوق « أفروديتيه » عليهما في الرشاقة والجمال فتحنقان حقاً شديداً على سكان تروادة وتصمان على دحرم ونسف مدينتهم .

وتبرّ أفروديتيه بوعدها الذى قطعته على نفسها لباريس بأنها ستقدم إليه أجمل غانية على ظهر البسيطة أنظر الصفحة رقم ٢ فى صفحة ٣٢ . وهنا تكون المشكلة العويصة لأن جميع ملوك الهياين كانوا قد أقسموا يوم زفاف « هيلينيه » إلى « مينىلاؤوس » ليجتمعن كلهم للدفاع عنها إذا داهمها خطر أيا كان مصدره فعند ما تحلّى « أفروديتيه » بين « هيلينيه » و « باريس » وتسهل لهما سبل الاجتماع وتلقى حبه فى قلبها وتتم له الاستيلاء عليها ، يرى ملوك الهيلين أن الوفاء يحتم عليهم الاشتراك الفعلى فى حرب تروادة التى ترمى إلى إنقاذ جميلتهم المرموقة من كل عين . ولا يكاد « باريس » يختطف « هيلينيه » ويحملها إلى تروادة حتى يذكر زوجها ملوك الهيلين بمهودهم القديمة فيهبوا جميعاً من سكوتهم وهدوئهم ويأخذ كل واحد منهم فى تكوين الجيش الذى تسمح له به قوته . وعلى أثر انتظام عقد

هذه الجيوش يسلّمون قيادتها العليا إلى العاهل العظيم « أجامنون » شقيق « مينيلّاووس » زوج الغانية المخطوفة .



هذه هي صورة أفروديتيه إلهة الحب والجمال وهي تسكب لواعج غرام باريس في قلب هيلينيه على هيئة أخت كبرى تطوق بذراعيها شقيقها الصغرى وتنصح لها بالانقياس في هذا الحب فتستمع هيلينيه لوسوستها مطرفة مرهفة ، وفي الرقت عينه ينشر إيروس ابن أفروديتيه جناحيه ويجتذب باريس نحو هذه الغانية الفاتنة . [الصورة رقم ٢ : وهي إحدى صور متحف نابول البارزات]

ومن بين هؤلاء الملوك الذين يجتمعون لغسل هذه الإهانة التي لحقت ببلاد الهيلين عامة « أخيلوس » الشاب الشجاع المتوقد ، و « أوديسئوس » الذكي المحتال ، و « نستور » الشيخ الهادئ الحكيم ، و « ذيوميذيس » البطل القدام وغير هؤلاء من كبار الأبطال الشجعان . ولكن تروادة هي الأخرى محمية بفرسانها المظاء البواسل الذين لا يقلون كثيراً

عن أبطال الهيلين ، ونخص منهم بالذكر « هكتور » بن « پرياموس » وكان علماً في الشجاعة والوفاء بين صفحات الأساطير القديمة .

تحدثنا هذه الأسطورة أن حرب تروادة دامت عشرة أعوام ، ولكن الإلياذة لا تتناول إلا الحين الختامى من السنة الأخيرة منها ، فهي تبدأ أنا شيدها بتصوير الهيلين إلى جانب أسوار تلك المدينة منذ تسعة أعوام يعانون أصناف الألم وألوان الشقاء من جراء سخط الإلاه أبولون عليهم كما سنفصل ذلك في موضعه .

